٧ - حكومة تجار:

إن قرطاج مدينة تجارية فكانت حكومتها حكومة تجار تخدم مصالحها. ولا نعرف في العصور القديمة بلدا أخضعت فيه الرأسمالية السياسة، واستغلت الأهالي المغلوبين على أمرهم كما فعلت الرأسمالية في قرطاج. لقد كانت أرستقراطيتها المتكونة من رجال الأعمال مستبدة قاسية شديدة الحذر تشبه شبها كبيرا أرستقراطية البندقية إذا استثنينا الثقافة والذوق.

وما ورد في كتاب أرسطو "السياسي" من معلومات)حوالي ٢٢٥ (لا يسمح لنا أن نتصور بدقة نظام الدستور البونيقي الذي يشبهه بدستور سبرتا. وربما كانت قرطاج في أول أمرها خاضعة لعائلة مالكة خلفها في الحكم "شافطان" كما خلف القناصل الملوك في رومة. وكان هذان الشافطان ينتخبان من طرف الشعب كل سنة فيتنافس المترشحون في استعمال الرشوة. ويساعد الشافطين مجلس الشيوخ المتركب على ما يظهر من ثلاثمائة عضو يتم اختيارهم مدى الحياة من الطبقة الارستقراطية. وهكذا أتيح لطبقة النبلاء المتوارثة أبا عن جد أن تفرض إدارتها طيلة قرنين. ولم يحد من سلطانها سوى المنافسات التي تنشأ من وقت لآخر بين أعضائها. وكان يدير الشؤون العامة مجلس يتركب من ثلاثين شيخا.

وكانت أهم السلط بيد هيئة أو ربما هيئات كثيرة تتألف من خمسة أعضاء)الهيئات الخماسية(يعينون أنفسهم بأنفسهم، ويختارون محكمة المائة والأربعة صاحبة السلطة الكبيرة. وقد تم تأسيسها في القرن الخامس للحيلولة دون محاولة إقامة النظم الاستبدادية. وعندما تنتهي مأمورية المائة والأربعة يسند إليهم لقب "حاكم" لحمايتهم من الانتقام وتمتيعهم بالحصانة.

إلا أن هذا التخطيط الذي رسمناه لا يوافق إلا الحقبة الكلاسيكية، إن صح التعبير، من تاريخ قرطاج، فبوليب عندما يحدثنا عن مؤسسات هذه المدينة قبيل انهيارها يلمح إلى وجود مجلس شيوخ أقل نفوذا من ذي قبل ومجلس للشعب قد اتسعت مشمولاته وهو بذلك يشير إلى دولة أكثر ديموقراطية.

٨ - شعب قرطاج ودوره السياسي:

إننا لا نعرف شعب قرطاج معرفة كاملة، فنحن لا نجهل حياته ومطامحه حسب، بل حتى تركيبه لا يزال غامضا أيضا. ولا شك أن المواطنين كانوا العنصر الأساسي فيه، ولكننا نجهل عددهم وبالخصوص نسبة هذا العدد من مجموع السكان فإلى جانب المواطنين كان يوجد الموالي والعبيد وكان عددهم كبيرا من دون ريب، والأجانب وخاصة أهالي افريقية الذين أغراهم ما كان ولا يزال يوجد من موارد في كل ميناء كبير.

إنه لم يكن لمجلس الشعب الذي لا نعرف دوره بالضبط إلا سلطة متفاوتة في الزمان، فهو الذي ينتخب القواد وكذلك "الشافطين" من دون شك ولم يكن له بعد ذلك غير دور الحكم إزاء ما كان يحدث من خلافات بين الشافطين ومجلس الشيوخ. وابتداء من القرن الثاني فقط أصبح يرجع إليه ويطلب رأيه أكثر من ذي قبل. ولا نعرف كذلك شيئا (" يذكر عن "الجمعياتHétairiesالتي كان أعضاؤها يتناولون أحيانا الطعام معا.) وقد أراد بعضهم اعتبارها نوعا من النوادي، ورأى البعض الآخر أنها نوع من النقابات (المهنية، ونظرها آخرون بالعشائرCuriesالرومانية. ولا يوجد التباس من حيث الاتجاه في) محاولات الإٌصلاح، وأهمها تلك المحاولة التي قام بها حنبعل غداة موقعة "جامة" ولكن لا يمكن ضبط مداها من الناحية العملية، وفي الجملة فإنه يبدو أن الدور الذي كان يلعبه من الناحية القانونية شعب قرطاج ظل دائما متواضعا.

إلا أن تطور المؤسسات في اتجاه ديمقراطي يسمح بالاعتقاد بأن الشعب أو على الأقل بعض عناصره كان حريصا على تغيير وجهها من الخارج. ويظهر أن الفتن كانت كثيرة نسبيا، ولكنها لم تسفر مع ذلك عن ثورات. فلم تلق محاولات الاستبداد بالحكم -كتلك التي قام بها حنون الأكبر في أواسط القرن الرابع- التأييد الشعبي الذي كان من شأنه

أن يضمن لها النجاح. وإذا أمكن -إذن- الحديث عن "تزايد نفوذ الشعب" فإنه يجب أن نلاحظ أيضا أن هذا التزايد لم يبلغ من القوة بحيث يقضي على رسوخ نظام حكم

الأقلية في المدينة.

٩ - جيش من المرتزقة:

إن أية دولة، ولو كان أفرادها تجارا، لا يمكنها الاستغناء عن قوة مسلحة، إما لمعاضدة توسعها الاستعماري أو لقمع الثورات. ولكنها تحذر من القواد الذين يضيقون ذرعا بإشراف رجال الأعمال عليهم، ويميلون إلى قلب نظام الحكم. فقد أثار قواد قرطاج في القرن الرابع خاصة مخاوف الحكومة. فضربت مرات عديدة على أيدي قواد عسكريين استرابت بعض أعمالهم الجريئة، أو صلبت من اتهمتهم بالسعي إلى الاستبداد بالحكم. وكانت الحصون التي تحوط المدينة تضعها في مأمن من الغارات. كما أن أسطولها الحربي يضمن لها السيطرة على البحار والتزود بانتظام. وكان معظم الجدافين المشهورين بمهارتهم في العمل من بين المواطنين. وكان لها في أول الأمر جيش وطني. ثم بعد ذلك دخل بعض الأغنياء البونيقيين في الخيالة ولكنها انتدبت المرتزقة منذ القرن الرابع. فقد حارب إلى جانبها في معركة هيمير) ٤٨٠ (ليبيون واسبانيون وليغوريون وسردانيون وكرسيكيون. ثم أضافت إلى جيوشها شيئا فشيئا رجالا مسلحين بالمقاليع جندتهم من جزر البلجار والسلتيين والسمنيين والبروتيين. واستمدت في القرن الثالث معظم جنودها من افريقية فجندت بالقوة العبيد الليبيين العاملين في أراضيها، وأسندت إلى الأمراء الأهليين قيادة الخيالة النوميدية التي سجلت لها أبهر انتصاراتها بفضل حملاتها الفجائية وكمائنها وبراعتها في الاهتداء إلى معاقل العدو. ولم يكن الجيش المتكون من المرتزقة منقادا دائما. وهيبة حنبعل هي وحدها التي وضعت حدا لهروبهم، وكثيرا ما كانت تحدث الثورات في صفوف هذا الجيش، أو يعتمد عليه من يشق عصا الطاعة من بين القواد.

واصطادت قرطاج في جبال الأطلس الفيلة المتوحشة التي كان يروضها للحرب فيالة هنود. ولقد وصف لنا "بلين" طرق صيدها ولاحظ "سترابن" أنه وقع بناء اصطبلات لها قريبا من أسوار المدينة. وقد كانت الفيلة الليبية ابتداء من أواخر القرن الرابع بمثابة الدبابات؛ وهي أصغر قامة وأقل إقداما من الفيلة الهندية. وكانت تدخل الرعب في

قلوب الرومان حتى أن شيبيون الأميلي بالغ في موقعة جامة في وسائل الاحتياط من هجماتها غير أنها لم تكن سهلة الانقياد فهي تغدر بأصحابها في بعض الأحيان فيضطر هؤلاء إلى قتلها.

١٠ - نظام جبائي صارم:

كانت الدولة القرطاجية تعتمد لمواجهة المصاريف العامة على حاصل المعاليم القمرقية وأتاوى الليبيين والضرائب الموظفة على المدن. وفي القرنين الثالث والثاني لم تنافس قرطاج في الثروة إلا الإسكندرية وحدها. إلا أن هذا الازدهار المالي المتأتي عن التجارة خاصة لم يقدر على الصمود أمام الأزمات التي كانت تعرقله. فاضطر القوم بعد الحرب البونيقية الأولى التي تعذر معها جمع الموارد القمرقية إلى حجز نصف محصول المزارعين وإلى مضاعفة الأداءات المضروبة على المدن. ولم يخل ذلك من عنف بطبيعة الحال.

١١ - مدينة تجار:

لقد كان البونيقيون رجال أعمال همهم الوحيد الأرباح المادية. وقد كانوا يحسنون لغات كثيرة بحكم الضرورة من غير أن يتظاهروا بذلك في بعض الأحيان، ولم يتركوا أثر يذكر في الأدب والتاريخ والعلم. واقتصروا في ميدان الفن على تقليد النماذج المصرية والإغريقية إن لم يجلبوا فنانين أجانب. فبوييتوس القرطاجي(Boéthos le Carthaginois) النحات الذي أنجز تمثال "ايفيز" إغريقي النسب، قرطاجي المولد على أغلب الظن، وذلك على الرغم من أن البونقيين كانوا أذكياء. ويعلل "قوتيه" ذلك في إطناب فيقول: إن عقليتهم الشرقية تخالف اختلافا جذريا عقلية الغربيين.

١٢ - عادات شرقية:

كان القرطاجيون يتكلمون لغة فينيقية محرفة إلى حد ما. ولسنا نعرف عنها إلا بعض النقوش وخاصة الجمل الموجودة في كتاب بونيلوس لبلوطPlauteوكانت لهم (موازين ومقاييس ورزنامة وأقبية للموتى شبيهة بالآبار الفينيقية الأصل. وكان لباسهم شرقيا بحتا فكانوا يرتدون الجبة الطويلة ذات الأكمام الواسعة عامة، وكانوا يضعون

على رؤوسهم القلنسوة ويلبسون معطف السفر. وقد وجد قوتيه شبها بينها وبين "الكدرون" والطربوش والبرنس التي يلبسها المغاربة في عصورنا هذه وكانت عاداتهم شرقية أيضا، وكانت نساؤهم يكثرون من التزين بالحلي واستعمال ألوان التجميل

ش. جوليان تاريخ شمال إفريقيا

٩٨ ٩٩

ويبالغن في التعطر. وظل الرجال والنساء مدة طويلة يضعون خرصانا في أنوفهم. ويظهر أن الفينيقيين عدلوا عن الختان في الأرض الإفريقية. وتشهد الاكتشافات الأثرية أنهم لم يعددوا زوجاتهم واستمروا بالعكس يسجدون أمام العظماء ويحجمون عن أكل لحم الخنزير. أما فيما يتعلق بوحشيتهم وخداعهم فإن الغربيين، وخاصة الرومان لم يتركوا لهم مجالا للتفوق عليهم.